الفصل الثاني

الحسبة في الإسلام

يقوم نظام الحسبة في الإسلام على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلى فطرة المجتمع التي تتسم بالاجتماع والتعاون والتناصر ، أن كل بني آدم لا تتم مصلحتهم لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا بالاجتماع والتعاون والتناصر ، فالتعاون على جلب منافعهم ، والتناصر لدفع مضارهم ، ولهذا يقال : الإنسان مدني بطبعه ، فإذا اجتمعوا فلابد لهم من أمور يفعلونها يحققون بها المصلحة ، وأمور يجتنبونها لما فيها من المفسدة ، ويكونون مطيعين للآمر بتلك المقاصد أو المنافع ، والناهي عن تلك المفسدة ، فجميع بني آدم لهم من طاعة آمر وناه ، فإن الناس لم يتنازعوا – لم يختلفوا – في أن عاقبة الظلم وخيمة ، وعاقبة العدل كريمة ، ولهذا يروى أن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة ، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة.

لهذا أمر النبي ﷺ بتولية ولاة أمور عليهم ، أمر ولاة الأمور أن يردوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكموا بين الناس أن يحكموا بالعدل ، وأمرهم بطاعة ولاة الأمور في طاعة الله تعالى ، ورسول الله ﷺ قال : «إذا خرج ثلاثة سفر فليؤمر أحدهم » وأن النبي ﷺ قال : «لا يحل لثلاثة يكونوا بفلاة من الأرض إلا أمروا أحدهم ».

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الذي أنزل الله به كتبه وأرسل به رسله وهو من الدين ، فإن رسالة الله إما إخبار وإما إنشاء فالإخبار عن نفسه عز وجل وعن خلقه مثل التوحيد والقصص الذي يندرج فيه الوعد والوعيد والإنشاء الأمر والنهي والإباحة .

إن قوله سبحانه في صفة نبينا ﷺ : ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧] هو لبيان كمال رسالته فإنه ﷺ هو الذي أمر الله على لسانه بكل معروف ونهي عن كل منكر واحل كل طيب وحرم كل خبيث ، ولهذا روى عنه ﷺ أنه قال : « إنما بعثت لأتمم

مكارم الأخلاق» .

فالأصل في قاعدة الحسبة أن يكون الدين كله لله ، وأن تكون كلمة الله هي العليا ، فإنه سبحانه وتعالى خلق الخلق لذلك ، وبه أنزل الكتب ، وبه أرسل الرسل، وعليه جاهد الرسول والمؤمنين : قال الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ وقال تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ وقال : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ .

وقد أخبر عن جميع المرسلين أن كلا منهم يقول لقومه : ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾ . وعبادته تكون بطاعته وطاعة رسوله ، وذلك هو الخير والبر والتقوى والحسنات ، والقربات والباقيات الصالحات والعمل الصالح ، وهذا الذي يقاتل عليه الخلق ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾ . سُئل النبي ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل رياء ، فأي ذلك في سبيل الله ؟ فقال : (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله).

وكل بني آدم لا تتم مصلحتهم لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا بالاجتماع والتعاون والتناصر ، فالتعاون على جلب منافعهم ، والتناصر لدفع مضارهم ، ولهذا يقال : الإنسان مدني بالطبع ، فإذا اجتمعوا فلابد لهم من أمور يفعلونها يجتلبون بها المصلحة ، وأمور يجتنبونها لما فيها من المفسدة ، ويكونون مطيعين للآمر بتلك المقاصد ، والناهي عن تلك المفاسد ، فجميع بني آدم لابد لهم من طاعة آمر وناه . فمن لم يكن من أهل الكتب الإلهية ولا من أهل دين فإنهم يطيعون فيما يرون أنه يعود بمصالح دنياهم ، مصيبين تارة ومخطئين أخرى ، وأهل الكتاب متفقون على الجزاء بعد الموت ، ولكن الجزاء في الدنيا متفق عليه أهل

الأرض ، فإن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة ، وعاقبة العدل كريمة ، ولهذا يروى : الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة ، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة.

وإذا كان لابد من طاعة آمر وناه فمعلوم أن دخول المرء في طاعة الله ورسوله خير له ، وهو الرسول النبي الأمي المكتوب في التوراة والإنجيل الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، وذلك هو الواجب على جميع الخلق ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴾ وقال : ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴾ وقال : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ . وكان النبي ﷺ في خطبته للجمعة : « إن خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد ، وشر الأمور محدثاتها » . وكان يقول في خطبة الحاجة : « من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فإنه لا يضر إلا نفسه ، ولن يضر الله شيئًا » .

وقد بعث الله رسوله محمدًا ﷺ بأفضل المناهج والشرائع ، وأنزل عليه أفضل الكتب ، فأرسله إلى خير امة أخرجت للناس ، وأكمل له ولأمته الدين ، وأتم عليهم النعمة ، وحرم الجنة إلا على من آمن به وبما جاء به ، ولم يقبل من أحد إلا الإسلام الذي جاء به ، فمن ابتغى غيره دينًا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين.

نظام الحسبة : تعريف ومعايير

الحسبة في اللغة :

تدل على العد والحساب والقصد ، يقال : احتسب بكذا إذا اكتفى به ، وأحتسب على فلان الأمر : أنكره عليه ، واحتسب الأجر على الله : ادخره لديه ، والحسبة أهم من الاحتساب : والاحتساب يستعمل في فعل ما يحتسب عند الله تعالى أي طلب ثواب الله تعالى ومن ذلك الحديث النبوي الشريف : «من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر الله ما تقدم من ذنبه» وترد بمعنى التدبير ومن ذلك القول إن فلان حسن الحسبة .

والاحتساب في الأعمال المكروهات وعن الأعمال الصالحات وهو العمل إلى طلب الأجر وتحصيله بالتسليم والعبر أو باستعمال أنواع البر والقيام بها على الوجه المرسوم والثواب المرجو منها وقد تخرج الحسبة إلى معاني أخرى منها الكفاية والاستعداد وحسن التدبير وفي معنى آخر أن الحسبة هي وظيفة دينية في باب الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه والنهي عن المنكر إذا ظهر فعله هو فرض القائم بأمور المسلمين ، يعين لذلك من يراه أهلاً له فيتعين فرضه عليه ويتخذ الأعوان على ذلك ويبحث عن المنكرات ويؤدي على قدرها ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة ويعرف بالأمر بالمعروف إذا ظهر تركه ونهى عن المنكر إذا ظهر فعله. قال تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ ﴾ [آل عمران:١٠٤].

والحسبة ومهمة المحتسب بأنه يراقب سير الحياة الاقتصادية والاجتماعية بطريقة تجعلها في إطار قواعد الشرع الإسلامي وفي نطاق المصلحة العامة وبهذا المعنى يكون لنظام الحسبة أركان أربعة هي المحتسب والمحتسب عليه والمحتسب فيه والاحتساب نفسه.

والحسبة عند الفقهاء : الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه ونهى عن المنكر إذا ظهر فهل نهي إذا من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بل أن الفقهاء يسمون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر احتسابًا وحسبة مادام القائم به يفعله احتسابًا ابتغاء مرضاة الله وما عنده من ثواب وإن ما أخص أوصاف المؤمنين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الحسبة اصطلاحًا :

والحسبة في الاصطلاح بمعنى وظيفة تتولى حفظ المجتمع المدني وتصونه وترعى الآداب العامة فيه وتسهر على وجودها بعين ثاقبة آمرة بالمعروف إذا اختفى واستتر وناهيه عن المنكر إذا أنشأ وانتشر وقد عرفت على أنها : (أمر بالمعروف إذا ظهر تركه ونهى عن المنكر إذا ظهر فعله وإصلاح بين الناس).

وبهذا المعنى تعد الحسبة واجبًا عامًا على المسلمين غير أنه روى أن لا يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للمسلمين والمؤمنين يأمرون بعضهم بعضًا وينهون المعاصي منهم عن فعل المعصية فمن الناس لا يخشى الله فلا يرتدع عن غيه إلا إن مجرد العقاب رأى العين من أجل هذا روى تخصيص بعض المال من أصحاب السلطة للقيام بمهمة ولاية الحسبة أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إن الدولة العربية الإسلامية الفتية والتي امتدت إلى أرجاء واسعة في المعمورة وبوقت نسبيًا قد تخطت كل الأرباكات والمشاكل المتوقعة والمفترضة لهذا الاتساع السريع ، ونظمت الشريعة السمحاء المعاملات التجارية والمالية كما أن الدولة الفتية استوعبت الإرث التجاري والعادات المحلية ، وتوافدت الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة التي أكدت على التعامل العادل بين التجار ووردت إشارات إلى رؤوس الأموال أو الربا والأجور والقرض وإن أمور التجارة والمال

قد نظمت وفق القواعد الإسلامية .

كما إن بناء المدن الجديدة أدى إلى ظهور مشاكل اجتماعية وأخرى دينية إضافة إلى ظهور الأسواق في هذه الأمصار وتوطن أصحاب المهن والصناعات المختلفة التي تمد هذه المهن بما يحتاج السكان من لوازم مختلفة ، كل هذا قد مهد لتطور وظيفة المحتسب.

إن الحسبة وظيفة تعبر عن التضامن الاجتماعي لذلك عملت الدولة إلى تعيين موظف يدعى (المحتسب) مهمته حفظ الصالح العام بمراقبة السلوك والأخلاق والمخالفات الدينية والاقتصادية ويقوم على حفظ الصحة العامة في المدينة.

ومما تقدم قد تعرفنا على إحدى المؤسسات العربية الإسلامية ألا وهي الحسبة تلك المؤسسة التي كان لها الدور البارز في الحفاظ على الاستقرار للحياة الاجتماعية والاقتصادية في المجتمع العربي الإسلامي وكيف أن المحتسب كان يمثل وظيفة مهمة من وظائف الدولة لضمان استقرار الحياة الاقتصادية ومن خلال تسليط الضوء على شخصية القائم بمهمة الحسبة (أي المحتسب) الذي كانت مهمته هي متابعة المعاملات الجارية في الأسواق والتأكد من خلوها من الغش والتدليس استطعنا أن نعرف الشروط التي يجب أن تتوفر في هذا الشخص والتي من أهمها العلم والورع وحسن الخلق وعند اختياره من قبل أولى الأمر يجب أن يروا فيه أن يكون حرًا بالغًا عاقلاً قادرًا عدلاً وذا رأي وصراحة معروفة بالمنكرات الظاهرة .

تاريخ الحسبة في الإسلام

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نشأت وظيفة الحسبة إلى جانب وظيفة القاضي ، نتيجة تضخمُ ظروف الحياة في الخلافة الإسلامية ، وهي وظيفة دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الذي هو فرض على القائم بأمور

المسلمين ، يُعَيّنْ لذلك مَنْ يراه أهلاً ، فيتعيّن فَرْضهُ عليه بحُكْمِ الولاية ، وإن كان على غيره من فروض الكفاية ، قال تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٤] .

وفي تطوُّرها فقد تَعَدّتِ الحسبة هذا المعنى الديني في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى واجبات عملية مادِّية تتفق مع المصالح العامة للمسلمين فقد تناولت أمورًا اجتماعية متعددة ، مثل : المحافظة على النظافة في الطرق ، والرأفة بالحيوان بأن لا يُحمل مالا يطيق ، ورعاية الصحة ، ومنع مُعَلِمي الصبيان من ضرب الأطفال ضربًا مبرحًا ، ومراقبة الحانات وشاربي الخمر ، وتبرُّج النساء ، وبعبارة عامة كل ما يتعلق بالمجتمع وأخلاقه ، والظهور فيه بالمظهر اللائق ، كما تناولت أمورًا اقتصادية ، وذلك لتضخم المدن الإسلامية بأرباب الحرف والتجارات ، فكان عمل المحتسب الأساسي منع الغش في الصناعة والمعاملات وبخاصة الإسراف على الموازين والمكاييل وصحّتها ونسبها .

ولم تعرف الأمم والحضارات السابقة وكذل اللاحقة هذه الوظيفة في مجتمعاتها وأعرافها ، والحق أن هذه الوظيفة في غاية الأهمية ، لأنها تمثل المراقبة الأخلاقية على الشعوب فمن المعلوم أن الحضارة الإسلامية اهتمت بعاملين مهمين ، فالأول : العامل المادي ، والثاني : العامل الروحي ، ومن ثَمَّ كانت وظيفة الحسبة بمنزلة التطبيق الرائع لأخلاقيات الإسلام وأوامره السلوكية.

الحسبة في عهد النبي ﷺ :

وأول من احتسب في تاريخ الحضارة الإسلامية ، هو رسول الله ﷺ مرَّ على صُبْرة طعامٍ ، فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً فقال : «مَا هَذا يَا صَاحِبَ الطَّعام؟ » قال : أصابته السماء يا رسول الله قال : أفَلاَ جَعَلْتَهُ فَوق الطَّعامِ كَيْ يَراهُ النَّاسُ ، مَنْ غَشّ فَلَيْسَ مِنّي » وحينما بدأت الدولة الإسلامية الأولى تأخذ في

التشكيل والاستقلال ، رأينا رسول الله يُعين أول محتسب في الإسلام ، حيث استعمل بعد الفتح على سوق مكة ، مما يُدلل على أهمية هذه الوظيفة منذ فجر الإسلام.